مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

نماذج من حواضر المغرب المندثرة خلال العصر الوسيط من خلال المصادر والمراجع

رشيدة الشانك
باحثة في سلك الدكتوراه
جامعة ابن طفيل – القنيطرة
المملكة المغربية

مُلَخّص

غالبًا الحديث عن مدن العصر الوسيط، يرتبط في ذهن العديد من القُرَّاء والدارسين، بالمدن التي استمر إشعاعها وتجددت أدوارها، مثل فاس، مراكش الرباط مكناس، وتتجاهل المدن التي كان مصيرها التدهور والتحول إلى أطلال ورسوم، أم مدفونة تحت التراب لا نعرف حتى موقعها كما هو الشأن بالنسبة لبعض المدن المغربية (البصرة، تمدولت، حجر النسر، نول لمطة، تدغة، زكندر، المدينة الغربية، داي، تيط، غساسة، تيكساس، لمزنة، واللائحة طويلة. الاهتمام بالمدن المندثرة، هو اهتمام بالمدينة الوسيطية بصفة عامة، والمدينة المندرسة بصفة خاصة، هو قراءة في الأدب الجغرافي الحافل بأسماء مدن لم تعدّ على الخريطة، مما جعلنا نطرح مجموعة من الأسئلة سنحاول الإجابة عنها. ففيما يتعلق بدراسة المدن الوسيطية المندثرة، لا نجد مؤلفات خاصة مباشرة بهذا الموضوع، رغم ظهور بعض الدراسات المونوغرافية، كما هو الشأن بالنسبة، لسجلماسة، أغمات، مدغرة، لهذا سأهدف من خلال هذه الدراسة، الحديث عن اختفاء بعض مدن العصر الوسيط واندثارها، والعوامل المتحكمة فيها. من خلال سرد نماذج من مدن اختفت وخربت رغم أنها ومن خلال المصادر كانت تتميز بغناها وبكثافتها السكانية. فحين ندرس هذه المدن المندثرة كما قال المؤرخ محمد زنيبر نعترف أن الزمن فعل فعلته. وللإحاطة بالموضوع رغم قلة المادة المصدرية المتعلقة بخراب المدن واندثارها، حاولنا البحث في هذا الموضوع، معتمدين على المنهج الشمولي، ومن خلاله طرحنا كإشكالية للبحث: أسباب اختفاء هذه المدن رغم أهميتها، ثم أهم الاستنتاجات في ضوء نتائج البحث، عن ضرورة إعادة كتابة تاريخ هذه المدن المندرسة، واللجوء إلى التنقيب الأثري والبحث الإركيولوجي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٤ سبتمبر ٢٠٢٠
تـاريخ قبــول النشــر: ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

مدن؛ العصر الوسيط؛ مندثرة؛ داي؛ نول لمطة؛ البصرة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.202108

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رشيدة الشانك. "نماذج من حواضر المغرب المندثرة خلال العصر الوسيط من خلال المصادر والمراجع".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٣٠ – ٣٦.

Corresponding author: rachidaechanik2016@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورية كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

الذي لم يندثر خبره لم ينته أمره، مدن اندثرت ولكن ظلت خالدة في كتب التاريخ. لعبت أدوارًا هامة في تاريخ المغرب: كسجلماسة البصرة نول لمطة بادس، داي، غساسة، تامدولت. مقالي هذا محاولة لدراسة مدينة المغرب الوسيطية، وخاصةً تلك التي اندثرت، لكن نصادف اسمها في كتب التاريخ والجغرافيا، الرحلات، كتب المناقب والأنساب، وفي معطيات الكتابات على النقود أو المباني، في المرويات الشفوية، الآن ولسوء الحظ لا تحمل أسماءها الخرائط الحديثة. مدن اندثرت أو أصبحت مجرد أطلال أو مطمورة تحت التراب. مقالي هذا سيهدف إلى التعريف بتاريخ مدننا خاصة المندثرة التي لعبت أدوارا في فترات هامة من تاريخ المغرب كمدينة داي، البصرة، ونول لمطة. معتمدين على منهج علمي لم نخرج عليه في عملنا هذا وهو: النهج التاريخي المعتمد على الوصف التعريف ثم التحليل والتركيب، باعتبارها الآليات الكفيلة بدراسة هذا الموضوع.

قبل الحديث عن خراب بعض مدن المغرب الوسيط، يتفق الجميع على أن المغرب عرف حركة عمرانية مهمة مع الدول الكبرى التي حكمته: الأدارسة، المرابطين الموحدين والمرينيين، رغم المشاكل السياسة والأخطار الخارجية (حروب، فتن، وكوارث طبيعية) ولكن العديد من هذه المدن لم تستمر، هل لأنها أي "المدن المندثرة" لم تحترم الشروط الضرورية التي يجب أخذها بعين الاعتبار عند تأسيس المدن؟ "أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها.[1] أو ما حدده ابن خلدون في إطار جلب المنافع ودفع المضار "فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعًا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك من في الممتع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحرأو نهر بها،"[2] أو كانت هناك عوامل أخرى متداخلة ساهمت في تراجعها أو في تحولها إلى مجرد بقايا وأطلال أو مدفونة تحت التراب. بل أحيانًا أخرى لا نعرف حتى موقعها."[3]

وفي إطار البحث واستقراء المراجع التي تناولت موضوع الخراب واندثار مدن العصر الوسيط، حاولنا طرح عدة تساؤلات: عن اختفاء بعض مدن العصر الوسيط وخرابها بالمغرب؟ مظاهر هذا الخراب؟ وتحديد أسبابه ونتائجه؟

أولاً: مدن المغرب المندرسة في العصر الوسيط

قليلة هي الدراسات التي اهتمت بموضوع اندثار المدن في تاريخ المغرب_ فقط نجد إشارات متناثرة وقليلة لا تشفي غليلنا في المصادر التاريخية والجغرافية، ويتم غالبًا الحديث عن هذه المدن في إطار الحديث عن السلاطين وما أحدثوه من بناء أو تدمير. فأثناء قراءة للمصادر الوسيطية نلاحظ بعض الإشارات لمدن خربت أو استأصلها الحكام، أو أقاموا مدنا على حساب مدن أخرى أو أن إهمالها أدى إلى تراجعها. هذه المدن تجعلنا نسأل عن أسباب ازدهار الحركة العمرانية في العصر الوسيط؟ ثم لماذا اندثرت هذه المدن الوسيطية؟ كسجلماسة، أغمات، نول لمطة، البصرة، داي، نكور المزنة، بادس.

المادة المصدرية المتعلقة بخراب المدن، هي فقط مجرد إشارات بسيطة عن حصار مدينة، سقوطها أو دمارها مثلاً "الآن أصبحت خرابًا "كانت وأصبحت خرابًا".. بدون تفسير أسباب هذا الخراب ومظاهره، فالمصادر الوسيطية تتحدث عن المدن في سياق حديثها عن أحداث وصراعات سياسية خاضتها دول المغرب في العصر الوسيط، وبالتالي يصعب تحديد كيفيات الخراب الذي لحق بالمدن، ومظاهره والوسائل التي سخرت في الأعمال التخريبية، وكيف تم استئصال بعض المدن؟ في المقابل تركز المصادر على بعض المدن وحصارها وما لحقها من تدمير، وخاصةً الحواضر الكبرى "كراسي الملك" حصار مراكش وفاس ومكناس من طرف الموحدين مثلاً، والتدمير الكبير الذي لحق المدينة ومعاناة الساكنة من جراء طول الحصار. بينما تدمير نكور من طرف يوسف بن تاشفين، لم يزد عن جملة واحدة "وفتح مدينة نكور وخربها ولم تعمر بعد"[4].

ملاحظة أخرى كذلك، وجود أسماء مدن في المصادر الجغرافية اختفت الآن ولا نعرف سبب اختفائها ولا حتى موقعها، مذكورة في المصادر في حكم "المفقودة "لا نعلم مكانها فكيف نعرف سبب اختفائها، فمحقق كتاب "التشوف إلى رجال التصوف"[5] أحمد التوفيق يشير إلى عبارة "لم نتمكن من تحديد موقعها"[6] أو لم يعدّ لها ذكر عند أهل تلك البلاد. ففي حديثه عن نفيس يشير "هي منقرضة الآن "وقد أعيى الباحثين التخمين في تحديد موقعها انطلاقًا من النصوص"[7] ونفس العبارة نصادفها كذلك مع محقق كتاب "الروض الهتون"، مؤرخ المملكة عبد الوهاب بن منصور، حين حديثه عن بعض المواقع القديمة. وهذا يجعل العمل صعبًا فهل نعلم اليوم مكان مدينة ازقور حتى نعرف هل الماء كان سبب اختفائها!!

إشكالية أخرى وهي المصادر التي تعرضت لانعكاسات الهجرة الهلالية والمعقلية على مدن المغرب الأقصى في العصر الوسيط، وما ألحقته هذه القبائل من دمار وفوضى وفساد ونهب، وما ساهمت فيه من تهجير قسري لساكنة بعض المناطق بشمال إفريقيا، مصادر فيها نوع من المبالغة وحتى التحامل، وفي المقابل استهانت بما خلفته هذه القبائل على الحضارة المغربية وحصرت التأثير في تعريب المنطقة فقط، هذه المصادر يجب التعامل معها بنوع من الحيطة والحذر عند استيفاء مادتها الخبرية والاستفادة مما أوردته من أخبار متعلقة بموضوع دراستنا.

ومن الدراسات التي تساءلت عن اختفاء بعض المدن الوسيطية المنجمية مقال للأستاذ الموساوي العجلاوي معنون بـ "تقنيات استخراج المياه الباطنية في مناجم الفضة بالمغرب (٢هـ-٧هـ/٨م-١٣) أشار إلى اختفاء مدينة تذغة المنجمية وبعض الفرضيات عن سبب اختفائها يفسر ذلك "فالفرشة المائية المستعملة في منجم ايمضر تصب عبر الخطارة في واد أقا معدن، نظرًا لحمولته القوية من مادة الزرنيخ كما دلت على ذلك التحليلات المختبرية للفرشة المائية لمنجم ايمضر، وربما يكون الزرنيخ سببًا من أسباب محتملة لاختفاء مدينة تذغة المذكورة في النصوص العربية القديمة".[٨]

ثانيًا: نماذج من المدن المندثرة

٢/١-مدينة "داي" ضحية العنف الموحدي

ثورة مدينة "داي"[٩]: من بين الانتفاضات التي أهملت المصادر ذكرها، انتفاضة حصلت بمدينة "داي" من المدن الهامة التي ذكرها البكري "حصن داي وهو في وسط غيضة كبيرة من أجناس الشجر ولهم سوق حافلة يجتمع فيها رفاق فاس والبصرة وسجلماسة بضروب الأمتعة"[١٠] وذكر خيراتها الشريف الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق "مدينة النحاس والقطن "ومن مدينة اغمات مع الشرق والشمال إلى مدينتي داي وتادلة أربعة أيام وبين داي وتادلة مرحلة ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها وهو نحاس حلو لونه إلى البياض"[١١] وفي الصفحة نفسها يشير مدينة داي صغيرة لكنها كثيرة العامر والقوافل عليها صادرة وواردة ويزرع بها وبأرضها كثير القطن"[١٢].

وعند صاحب روض المعطار "بينها وبين أغمات أربعة أيام، وبين داي وتادلة مرحلة، وداي في أسفل جبل خارج من جبل درن، وبها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس في أقطار الأرض ولونه الى البياض، هي مدينة صغيرة كثيرة العامر، والقوافل عليها واردة وصادرة ويزرع فيها القطن الكثير"[١٣] ويشير المستشرق Gauthier في مقال نشر سنة ١٩٢٦م في مجلة هيسبيريس بعنوان مدينة "أوداي" أي مدينة اليهودي"[١٤] وكانت داي من قواعد منطقة تادلا ذكرها البكري والادريسي والحميري وهي مدينة صومعة في بني ملال."[١٥] حسب محقق كتاب "التشوف إلى رجال التصوف "أحمد التوفيق، تمت الإشارة إلى أن تادلا قاعدتها مدينة داي مذكورة في كتب أوصاف البلدان والمسالك على أنها مستخرج معدن النحاس ومزرعة القطن وملتقى الرفاق الحاملين للسلع من جميع الافاق."[١٦]

احتضنت نشاطًا صوفيًا مبكرًا وحسب بعض المصادر أرسل القاضي عياض قاضيًا إلى داي بعد فشل ثورته بسبتة سنة (٥٤٣هـ-١١٤٩م)"[١٧]، وأكره صوفي يدعى أبا يعقوب بن علي المؤذن على ولاية الحسبة ببلد داي (٥٤٣هـ-١١٤٩م)"[١٨]. تزعم الثورة في "داي" ثائر يدعى "عتاب"[١٩] واعتمادًا على إشارتين انفرد بهما ابن الزيات التادلي في التشوف "قيل إنه يطلب الملك فقتل وطلب أصحابه"[٢٠]. اندلعت الثورة، في بداية عهد يوسف بن عبد المؤمن، وبالضبط سنة (٥٥٩هـ/١١٦٤م) ويعتبر الزيات المصدر الوحيد الذي ذكر هذه الشخصية الذي يكتنفها غموض كبير رغم أنه ثائر ارتبط اسمه بتخريب داي، فقد تجاهلته كتب المناقب والقليل المتوفر يصفه أنه زعيم قبلي أعلن ثورته في داي "لطلب الملك" بمساندة قبائل المنطقة[٢١].

يُعَدّ الأستاذ أحمد التوفيق، هو أول مَنْ نبه إلى أهمية الإشارة إلى عتاب في تحقيقه للتشوف ورجح أن يكون لحركة عتاب سند من العصبية، وقبائل تادلا مرشحة لها "فقبائل المنطقة كلها صنهاجية وليست من المصامدة الذين أيدوا الموحدين[٢٢]"، وقد أشير كذلك إلى ما عُرف من كراهة أهل "داي" لنحلة الموحدين وخروجهم عليهم المرة تلو المرة وذلك ما يفهم من تكرار فتح تادلا وداي. وابن القطان في نظم الجمان يبين ذلك" وفي ستة وعشرين وخمسمائة تحرك رضي الله عنه إلى داي مرة ثانية ورد سرية إلى بلد هزرجة وهم غافلون فقتلهم قتلاً دريعا"[٢٣]. وقد جلا والده (والد صاحب التشوف) حسب محقق الكتاب عن مدينة داي"[٢٤] يوم جلا عنها أهلها وتشتتوا في البلدان"[٢٥] وكان ذلك سنة تسع وخمسين وخمسمائة أي السنة الموالية لوفاة عبد المؤمن بن علي، ويبدو أن عددًا من التاليين نزلوا جانب الشرقي من مدينة مراكش بعد النكبة"[٢٦]، وفي الجزء الخاص بأبي العباس السبتي" ثم طرأ

على أهل داي ما طرأ من الجلاء من بلدهم وافتراقهم في البلاد عام تسعة وخمسين وخمسمائة[٢٧].

فتدمير داي سنة (٥٥٩هـ/١١٦٤م)، بعد سنة واحدة من وفاة عبد المومن هو رسالة لكل المناطق التي تفكر في الخروج عن طاعة الموحدين، ودرسا لمَنْ يتجرأ على دولتهم ورسالة مفادها أن الدولة ما تزال قوية، رغم وفاة عبد المومن بن علي (٥٥٨هـ/١١٦٣م). غير أن ما يستشف من مختلف المصادر التاريخية هو أن السنتين المواليتين لوفاة عبد المؤمن يحيط بهما غموض لشدة الاضطرابات وتوالي المؤامرات حتى من طرف أبناء عبد المومن أنفسهم، بحيث لم يبايع أبو يعقوب يوسف بيعة الجماعة إلا يوم الجمعة ثامن ربيع الأول عام (٥٦٠هـ/١١٦٥م)، فخراب مدينة داي إذن حكمته ظروف خاصة جدًا ارتبطت بمصير السلطة الموحدية الفتية.

٢/٢-مدينة البصرة من التأسيس إلى الخراب

(٢/٢) ١-البصرة (التسمية والتأسيس)

البصرة تعني الحجر الأبيض، وقيل أرض فلان بصرة تعني الطين العلك الجيد مما يفيد أن بالمنطقة تربة جيدة، والبصرة"[٢٨] مدينة مغربية وتسمية البصرة المغربية على غرار مدينة البصرة المشرقية يطرح العديد من التساؤلات التي لم تحاول المصادر المكتوبة الإجابة عنها، إلا أن الوزان يورد إشارة مقتضبة في هذا الصدد فيقول: "وسميت بالبصرة تذكيرًا ببصرة بلاد العرب"[٢٩]، فهو نوع إذن من الالتزام من طرف المغاربة – حسب الأستاذ محمد بن تاويت- "نحو الشرق وخاصة العراق بما فيه البصرتان".[٣٠] مدينة البصرة كانت حاضرة بقوة في كتب الجغرافية الوسيطية لمكانتها السياسية ولأهميتها الاقتصادية وتشير هذه النصوص لإمكانياتها المتنوعة، فهي المدينة المقتصدة "عليها سور ليس بالمنيع ولها مياه عن خارجها من عيون عليها بساتين يسير من شرقيها ولها غلات كثيرة من القطن المحمول إلى افريقية وغيرها"[٣١]، وهي من مدن كور السوس الأدنى "حسب المقدسي"[٣٢]

عن مؤهلات البصرة كتب البكري: "البصرة مدينة كبيرة واسعة، وهي أوسع تلك النواحي مرعا وضرعا، ولكثرة ألبانها سميت ببصرة الدبان وتعرف أيضا ببصرة الكتان، كانوا يتبايعون في بدء أمرها في جميع تجارتهم بالكتان وتعرف أيضا بالحمراء لأنها حمراء التربة..."[٣٣] وهي على "تل صغير يشرف على نهرين أحدهما في الغرب والأخر في الشرق وهي كثيرة المياه إلا أن ماءها زعاق."[٣٤] المعلومات نفسها تقريبا نجدها عند صاحب "الروض المعطار" الذي يشير إلى موقعها بين طنجة وفاس من أرض المغرب ليميزها عن بصرة المشرق فهي –حسب هذا الأخير- "أوسع تلك النواحي مرعى وأكثرها زرعا ولكثرة ألبانها تعرف ببصرة الدبان وتعرف ببصرة الكتان، وتعرف أيضا بالحمراء لأنها حمراء التربة".[٣٥]

وحول تأسيس المدينة تجمع المصادر التاريخية على أن البصرة أسست على عهد الأدارسة"[٣٦] دون أن تحدد لنا بالضبط في عهد أي أمير إدريسي تم الأمر، وهنا نجد اختلافًا بين مختلف المصادر فمنها من أكد قيامها في عهد إدريس الثاني ودليل أصحاب هذا الرأي ما عثر عليه من دراهم يعود تاريخ سكها لعهد إدريس الثاني ضربت بالمدينة، في حين حدد الوزان تأسيسها سنة (٢١٨هـ/٨٣٣م) وعلى يد محمد بن إدريس"[٣٧]، ومن المرجح أن يكون الرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب لوجود الدليل المادي، وأيضًا لكونها دخلت في التقسيم الذي قام به إدريس بين إخوته.

إذن فمدينة البصرة شيدت بعد مدينة فاس، والتي كانت تعرف صراعات بين عدوتيها عدوة القيروان -التي تقطن بها قبائل البربر- وسكان عدوة الأندلسيين– حيث يقطن المهاجرون من قرطبة-"[٣٨]، ومن غير المستبعد أن يكون إدريس الثاني قد فكر في تشييد مدينة بعيدة عن فاس تكون بمثابة مدينة خلفية تفد عليها حاشية الإمام في أوقات الشدة والرخاء كمدينة استجمامية، وهذا ما قد يستفاد من إشارة كل من الوزان ومارمو لكربخال. ذلك أنه من "عادة ملوك فاس أن يذهبوا إليها لقضاء الصيف بسبب برودة المياه والغابات، ولأنها من أحسن أماكن الصيد لكنها دمرها الخليفة المذكور (القائم الشيعي)".[٣٩]

(٢/٢) ٢-انهيار وخراب البصرة

أغلب ما كتب عن خراب البصرة ربط تهديمها بالصراعات السياسة بين الأمراء الأدارسة وبين خصومهم من العبيديين والأمويين والمكناسيين"[٤٠]، فقد شن المكناسيون بزعامة موسى بن أبي العافية عدة حملات ضد الأدارسة في فاس والبصرة وحجر النسر، حيث هدفوا إلى استئصالهم فأجلوهم عن مدنهم الكبرى كفاس والبصرة، إذ بعدما استولى ابن أبي عافية على فاس وأعمال المغرب"[٤١] سنة ٣١٣هـ اتخذ الأدارسة من مدينة البصرة عاصمة لفلولهم إلا أن هذه الأخيرة ليست - حصينة ولا منيعة- ففر الناجون منهم إلى الريف وحجر النسر. إن ضعف تحصين المدينة جعلها فريسة سهلة لعمليات التخريب الناتجة عن حملات أعداء الإمارة الإدريسية ومنافسيها على شرعية الحكم ببلاد المغرب، فكان أن تعرضت

للخراب حسب صاحب البيان على يد أبي الفتوح يوسف بن زيري الصنهاجي أمير إفريقيا، والذي رحل بجنودها منها بعد تخريبها إلى بلاد برغواطة."[٤٢]

تشير أغلب المصادر التي تناولت الحديث عن مدينة البصرة، أنها لم تكن تتوفر على موارد مائية عذبة، "لها مياه عن خارجها من عيون وبساتين"[٤٣] كما أن "ماء المدينة زعاق،... وخارجها في جنانها عيون كثيرة وآبار عذبة"[٤٤]، وجود الماء خارج المدينة كان يشكل تهديدًا لها أمام أي حصار خارجي. عمومًا لم يبق من المدينة اليوم بعد اندراسها –حسب أحد الدارسين- "سوى الأطلال المهدمة من السور الذي كان يحيط بالمدينة وهذا الجزء من السور، يمتد من الغرب إلى الشرق أي من المنطقة العليا نسبيا إلى المنطقة المنخفضة حسب ما كشف عنه آخر بحث أثري."[٤٥]

٣/٢-نول لمطة مدينة القوافل

(٣/٢) ١-نول لمطة في المصادر الوسيطية

رغم جهلنا التام لتاريخ وظروف نشأة هذه العاصمة التجارية، فإن موقعها الاستراتيجي" كآخر مدن الإسلام"[٤٦] و"المدينة كبيرة في أول الصحراء نول لمطة"[٤٧] أما صاحب الاستبصار "أول بلاد الصحراء على نهر كبير يصب في البحر المحيط"[٤٨] أهلها موقعها لاحتلال مكانة تاريخية هامة، اقتصاديا وسياسيا خلال الفترة المرابطية، تشهد وفرة الأنقاض على أن المدينة كانت تشمل حيزا هاما ربما قريتي أسرير وتيغمرت"[٤٩]، (وإنما سميت نون لمطة لأن قبيل لمطة يسكنونها، وماؤها جار، وهي آخر بلاد سوس)[٥٠]. تعتبر من أهم العواصم الإفريقية التاريخية بعد مدينة سجلماسة ذات الشهرة العالمية، كانت أزهى أيامها مع المرابطين، حيث عرفت بوصول يحيى بن عمر رخاء وسعة لم تعرفهما من قبل، لكن مع الموحدين أشارت المصادر إلى الانتقام العنيف لعبد المومن حيث قام بإنزال أشد عقاب بمدينة نول لمطة وسكانها، فالمدينة أبدت في بداية العهد الموحدي مقاومة كبيرة وتصدت لهجمات الموحدين، كما كثرت ثورات سكانها عليهم وقد ورد في أخبار المهدي بن تومرت رسالة إلى القبائل الأمازيغية الصحراوية والمتمردة يهددهم قائلاً "ويل لأهل سوس وجيرانهم جزولة ولمطة..."[٥١]، وفي إشارة أخرى فكانت الضغينة تخرج من بلاد نول لمطة"[٥٢].

(٣/٢) ٢-عقاب مدينة نول لمطة

عاشت هذه المنطقة أسوأ حالاتها مع الموحدين، حيث لم تخضع إلا بعد مقاومة شديدة، وقد قام عبد المومن بإنزال أشد العقاب بمدينة نول لمطة"[٥٣] وسكانها، عقابا لهم على وفائهم للمرابطين الذين كانت علاقتهم باللمطيين وثيقة، خاصةً حين نعلم مكانة وكاك بن زلو اللمطي ومرجعيته الأساسية في تأسيس الدولة المرابطية، لهذا كان عقاب الموحدين قويا "شوهدت نساؤهم وقطعانهم وهي تباع على أبواب مراكش"[٥٤]. هكذا انتقل جزء هام من سكان المدينة على إثر الهزيمة أمام الموحدين إلى حيث أسسوا مدينة تكاوست، التي عرفت ازدهارًا كبيرًا خاصةً بعد تحول الطرق الداخلية نحو السواحل، إلا أن ازدهارها لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما ظهر مركز آخر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي استرعى انتباه التجار ويتعلق الأمر بمدينة كلميم[٥٥].

خَاتِمَةٌ

بعد اطلاعنا على ما تيسر من المصادر التاريخية، التي أشارت إلى أسماء مدن لم نعد نسمع بها الآن وهي شبه مجهولة من العامة، خلصنا إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها فيما يلي:

- من خلال دراستنا للمصادر العربية الوسيطية: يتوفر المغرب الأقصى على العديد من المدن القديمة التي اندثرت ولم يعد لها وجود، وقد احتفظت المصادر العربية بأسماء العديد منها كنور، وبادس، ومدن أخرى بقيت على شكل أطلال وأثار شاهدة على حقبة تاريخية معينة من تاريخ المغرب مثل وليلي وشالة، ثم هناك مدن استطاعت أن تتطور مع مرور الزمن بل وتفرض نفسها اليوم وبالأخص المدن الساحلية كطنجة وسبتة والتي ساعدتها الظروف الطبيعية على الاستمرار والتجديد.
- كم هائل من المدن المندثرة يفرض علينا طرح تساؤلات جوهرية وأساسية حول المصير الذي انتهت إليه، وحول زوال الحياة الحضرية وتلاشي التمدن من مواقع هي اليوم إما بقايا خراب أو مطمورة تحت التراب غساسة، المزنة، الغريبة...فكتب الجغرافيا تشير وتقدم لنا العديد من المعلومات المفيدة ولكن موجزة عن الطرق أو المسالك التي تربط بين المدن: يورد لنا البكري عددا من أسماء المدن بين سبتة وفاس اندثرت معظمها اليوم، ويشير إلى غناها وخصبها وتجارتها من سبتة إلى دمنة عشيرة مذكورة مرحلة، ومنها إلى موضع يعرف بالكنيسة، (...) فمنتيامن إلى أفتيس وهي مدينة صالحة كثيرة الخير. ولكن هذه المدن غالبا لا يعرف سبب اختفائها أو اندثارها بل حتى لا يعرف

مكانها الآن، هي أسماء ظلت فقط مسجلة ومؤرخة في الكتب.. ذكره لهذه المدن يعني وجود كثافة سكانية مهمة ونشاط اقتصادي وازدهار عمراني، فمن خلال كتب الجغرافية يمكننا جس نبض المغرب في فترات مختلفة من تاريخه الاقتصادي والاجتماعي.

- مدن مخلدة في كتب التاريخ والجغرافيا في حكم المفقودة، غير معروف مكانها بالتحديد.. كأقلام زقور حجر النسر ماسة وبالتالي يطرح ذلك إشكاليات كبرى أننا نبحث عن شيء وسط المفقود مثلا هل نحن نعلم اليوم مكان مدينة أفتيس كي نعرف سبب اختفائها.
- دعوة لإعادة كتابة تاريخ مدننا خاصة المدن المندثرة التي لعبت أدوارًا في فترات هامة من تاريخ المغرب البصرة، تامدولت، نول لمطة، طيط، حجر النسر واللائحة طويلة.
- الاهتمام بالمدن المندثرة من شأنه أن يبين حجم المجهودات التي ما تزال تنتظر الأثريين إن أردنا أن نكون فكرة عامة عن التمدين في الفترة الوسيطية، خاصة أن المعطيات التاريخية والجغرافية تشجع ذلك، حيث حددت أسماء مدن مندثرة التي هي حلقة ضمن حلقات مفقودة في تاريخ العصر الوسيط وملف كبير مطروح أمام البحث الأركيولوجي المغربي، ليعيد قراءة تاريخ بعض المدن المندثرة.

الاحالات المرجعية:

(١) ابن ابي الزرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، طبعة دار المنصور، الرباط ١٩٧٢، ص٣٣.

(٢) ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مراجعة سهيل زكاز، ج٢، دار الفكر بيروت ١٩٨٣، ص٦١٧-٦٢٨.

(٣) أبو يعقوب يوسف يحيى التادلي ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٢، الطبعة الأولى الرباط ١٤٠٤/١٩٨٤م مقدمة المحقق من صفحة ٥ إلى صفحة ٣٠.

(٤) ابن أبي الزرع، **روض القرطاس**، مس، ص١٤٣

(٥) ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، إحالة ٢٨، ص٩٠

(٦) ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، إحالة١٤٨، ص١٣١

(٧) ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، إحالة ٢٨، ص٩٠،

(٨) الموساوي العجلاوي، **تقنيات استخراج المياه الباطنية، من مناجم الفضة، (٥٧/٥٨م_١٣م)** ندوة الماء في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم١١، دجنبر ١٩٩٦

(٩) مدينة قديمة بوسط المغرب، اندثرت وقامت على أنقاضها مدينة بني ملال الحالية والمعروف عند الرحالة والمؤرخين العرب في تسميتها أنها مثل "داء"وزنا ومعنى، لما عرفت به من تعدد الأمراض لكثرة ما بها من عيون وشلالات وما يتبع ذلك من مستنقعات، أما عن تاريخ المدينة فالمشهور أنها من إنشاء المرابطين، في القرن الخامس(١١م) المصادر تارة على أنها حصن وتارة على أنها مدينة. كانت لها شهرة واسعة في العصر الوسيط ق١١م /١٢م، بعد هذا التاريخ اختفى اسم المدينة التي عاشت كحاضرة لتادلا نحو مائة وسبعين سنة، وعن نهاية مدينة داي يحددها نص التشوف يقول: أنه طرأ على أهلها في هذه السنة ٥٥٩ه١١٦٣م ما طرأ وافترقوا في البلدان، ومن المؤرخين من أرجع هذا التدمير إلى العهد الموحدي ٥٥٩ه، مادة (داي) محمد حجي، **معلمة المغرب**، ج١٢، مطابع سلا ١٤٢١ه_٢٠٠٠م، ص ٣٩٥٤.

(١٠) **المسالك والممالك لأبي عبيد الله البكري، الجزء الخاص ببلاد المغرب**، دراسة وتحقيق زينب الهكاري، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص٢٧٦

(١١) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في احتراق الأفاق، الجزء الأول، المجلد الأول**، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ١٤٢٢/٢٠٠٢م، ص ٢١٨

(١٢) المرجع نفسه، ص٢٤١

(١٣) محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، حققه الدكتور إحسان عباس، طبع على مطابع هيدلبرغ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٤، ص٢٣١.

(14) GAUTIER ER) **Madinat _Oudia in Hesperis** , 1926 t.4 pp.5-25

(١٥) معلمة المغرب، مدينة داي، الجزء ١٢

(١٦) ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، ص١٩.

(١٧) المغراوي محمد، **الموحدون وأزمات المجتمع**، منشورات جذور، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، ص٣٩.

(١٨) ابن الزيات، **التشوفإلى رجال التصوف**، ص١٦٨.
(١٩) ثائر ارتبط اسمه بثورة الموحدين، أدت إلى تخريب داي. ورغم ذلك فلم يرد ذكره إلا عند ابن الزيات التادلي في إشارات عرضية لذلك لا نستطيع تحديد اسمه الكامل ولا ملامح شخصيته على وجه الدقة. قام عتاب بانتفاضة ضد الدولة الموحدية في بداية عهد يوسف بن عبد المؤمن، وبالضبط ٥٥٩هـ_١١٦٤مانطلاقا من مدينة داي التي كانت مركزا صوفيا نشيطا، وأدت هذه الانتفاضة إلى قيام الموحدين بمطاردة "أشياخ المريدين بسبب ما نسب إلى عتاب حتى قيل إنه يطلب الملك فقتل وطلب أصحابه، **مادة (عتاب)** محمد المغراوي، **معلمة المغرب، الجزء١٨**، مطابع سلا ١٤٢٤/٥/٢٠٠٣م، ص٥٩٧٣-٥٩٧٤. ابن الزيات ، التشوف إلى رجال التصوف، ص ٣٩٥-٤٠٢.
(٢٠) ابن الزيات، **التشوفإلى رجال التصوف**، ص٣٩٥.
(٢١) محمد المغراوي، **الموحدين وأزمات المجتمع**، ص٣٨.
(٢٢) ابن الزيات، **التشوفإلى رجال التصوف**، مقدمة المحقق، ص٢٠.
(٢٣) ابن القطان المراكشي، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار زمان**، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي الطبعة الثانية، ص٦٨.
(٢٤) ابن الزيات **التشوف، إلى رجال التصوف**، ص ١٣٤، الحميري، **روض المعطار**، ص٢٣١.
(٢٥) الحميري، **روض المعطار**، ص٢٣١.
(٢٦) الحميري، **روض المعطار**، م.س، ص٢٠.
(٢٧) الحميري، **روض المعطار**، م.س، ص٤٦٦.
(٢٨) مدينة البصرة جوار الطريق الحالي الرابط بين مدينتي سوق الأربعاء ووزان، وقد بنيت هذه المدينة في موقع مناسب وسط أراضي زراعية واسعة، وقرب واد امضى الذي يجري خارج سورها الغربي في حين امتد الوادي منبسطا شمال شرقها لينفتح على حوض لوكس، والمتأمل لموقعها سيدرك مزاياه الطبيعية والاقتصادية والبشرية، فإليه يعود الفضل في وجودها وازدهارها طيلة العصر الوسيط "قدور أحمد **المعمورة والبصرة: دراسة مقارنة**، ضمن الندوة الوطنية تحت عنوان **قصبة المهدية تراث ومؤهلات**، أيام ٢٢و٢٣ أبريل ٢٠٠٣، ك.، آ.ع.إ، القنيطرة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٦، البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م، ص٣٨.
(٢٩) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر وآخرون ج١ ص١٢٠.
(٣٠) محمد بن تاويت، **المغرب ودول الخليج عبر التاريخ الإسلامي**، مجلة المناهل، العدد ٢٧، سنة ١٩٨٣، ص١٠٦.
(٣١) أبي القاسم ابن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية، مدينة ليدن مطبعة بريل سنة ١٩٢٨، ص٨١.
(٣٢) المقدسي المعروف بالبشاري، **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم**، الناشر مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١/٥/١٩٩١م، ص٥٩.
(٣٣) البكري، **المسالك والممالك**، م، س، ص٢١٨.
(٣٤) أبي عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد، ص١١٠.
(٣٥) الحميري، **روض المعطار**، مصدر سابق، ص١٠٨.
(٣٦) **مادة (البصرة)** أحمد شرقاوي اقبال، **معلمة المغرب، ج١٤**، مطابع سلا، ١٤١١/٥/١٩٩١م، ص١٢٥٤-١٢٥٥.
(٣٧) الوزان، **وصف افريقيا**، ج١، ص٢٤٠.
(٣٨) أبي عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، مكتبة المثنى بغداد، ص١١٦، محمود اسماعيل **الأدارسة في المغرب الأقصى حقائق جديدة**، ١٧٢/٥/٣٧٥هـ، مكتبة الفلاح، ١٩٨٩م/١٤٠٩، ص١٠٥.
(٣٩) مارمول كربخال، **أفريقيا**، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، الجزء الثاني، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون، ص١٩٦.
(٤٠) **مادة "البصرة" معلمة المغرب**، أحمد الشرقاوي إقبال، ج٤، مطابع سلا ١٤١١/٥/١٩٩١م، ص١٢٥٥.
(٤١) علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي، **الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية**، مطبعة الشباب بمصر، ١٣٤٩هـ، ص٧٧، البكري، **المسالك والممالك**، م س، ص١٢٦.
(٤٢) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق، كولان وليفي بروفنصال، ج١، دار الثقافة بيروت لبنان، ط٣، ١٩٨٣م، ص٢٣٥.
(٤٣) ابن حوقل، **صورة الأرض**، مصدر سابق، ص٨١.
(٤٤) البكري، **المسالك والممالك**، مصدر سابق، ص٢١٨.
(٤٥) اميلد محمد، **المدن الادريسية منذ أواخر القرن الثاني إلى نهاية القرن الرابع الهجريين**، دراسة تحليلية تركيبية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، السنة الجامعية، ١٩٩٧-١٩٩٨ص١٤٠.
(٤٦) البكري، المصدر السابق، ص١٦١.
(٤٧) الحميري، **روض المعطار**، ص٥٨٤.
(٤٨) مجهول الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥م. ص٢١٢
(٤٩) ناعمي مصطفى، **الصحراء من خلال بلاد تكنة: تاريخ العلاقات التجارية والسياسية**، منشورات عكاظ الرباط، ١٩٨٨، ص٧٨
(٥٠) الحميري، **روض المعطار**، ص٥٨٤.
(٥١) البيدق أبو بكر الصنهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط ١٩٧١، ص٦٧.
(٥٢) ابن أبي الزرع، **روض القرطاس**، ص٢١٧.
(٥٣) مدينة بوابة الصحراء أهم محطة طرق القوافل التجارية العابرة من المغرب إلى العمق الإفريقي، ما كان يسمى سلفًا ببلاد السودان، قال عنها البكري "ومدينة نول آخر مدن الإسلام وأول العمران من الصحراء وتسير السفن من ساحل نول إلى واد السوس ثلاثة أيام ونهرها يصب في البحر المحيط، ومن مدينة نول إلى وادي درعة ثلاث مراحل "_" أن قرية أسرير القريبة من مدينة كلميم بنيت على أنقاض مدينة نول لمطة "إحالة محققة **المسالك والممالك لابي عبيد البكري الجزء الخاص ببلاد المغرب**، زينب الهكاري، ص١٨٨. ناعمي مصطفى **الصحراء من خلال بلاد تكنة**، ص٨٠-٨١-٨٤.
(٥٤) قد يكون التاريخ التقريبي هو ١١٤٥م، كما أشار ناعمي مصطفى في مؤلفه **الصحراء من خلال بلاد تكنة** ص٨٧.
(55) Amri Lahoucine**Pouvoir_Réligion et Société_Etude Anthropologique du Phénoméne de la Zaouia au Maroc_le cas de Tazerwalt**_thése de doctorat-Paris, 1988. p145.